

هل خسر آل سعود زعامتهم للعالم الإسلامي؟



التغيير

منذ تأسيسها قبل نصف قرن، انعقد لواء زعامة منظمة المؤتمر الإسلامي، والتي ستعرف لاحقا باسم منظمة التعاون الإسلامي، لآل سعود حدث ذلك في ظروف إقليمية ودولية مواتية تماما للمملكة.

فهي من جهة أولى، حاضنة للحرمين الشريفين، مهد الرسالة المحمدية وموطنها الأول، ومن جهة ثانية، لم تلق منافسة جدية من قبل دول إسلامية وازنة، اقتصاديا وديموغرافيا في تلك الفترة (مصر مثخنة بجراح هزيمة يونيو 1967، تركيا لصيقة بالغرب والناو وضعيفة اقتصاديا، إيران تحت حكم الشاه، كانت دعامة أساسية للنفوذ الغربي في الخليج، باكستان وإندونيسيا غارقتان في الفقر والتحديات الداخلية، نمور آسيا، ومن ضمنها ماليزيا، لم تكن خرجت من أقفاسها بعد)... كما أن الزعامة السعودية للعالم الإسلامي، من جهة ثالثة، كانت "متطلبا" أملت ظروف الحرب الباردة ومقتضياتها في تلك الأزمنة.

المنظمة الإسلامية نشأت في الأصل، في سياقات الصراع العربي - الإسرائيلي وبفعل تداعياته - حريق

المسجد الأقصى في العام 1969 - واقتصرت أدوارها ووظائفها على تقديم الدعم والإسناد للجانب الفلسطيني، وتبنت تلقائياً، المواقف والبيانات الختامية لجامعة الدول العربية، ونأت بنفسها عن "التورط العميق" في قضايا الخلاف داخل العالم الإسلامي وبين دوله، مكتفية بدعم مواقف دول إسلامية في نزاعاتها مع دول غير إسلامية (الباكستان في صراعها مع الهند، المسألة القبرصية وغيرها).

يجد آل سعود صعوبة في إدامة قيادتهم للعالم الإسلامي

تغير هذا الوضع في السنوات الفائتة، بل تغير كلياً، فقد تبدلت مواقع المراكز الإسلامية الكبرى وتغيرت مواقفها وتطلعاتها الاستراتيجية... إيران الإسلامية مدفوعة بإنجازات العقدين الأخيرين، تتطلع لقيادة العالم الإسلامي أو قسم منه، في تحدٍ مباشر لزعامة المملكة المتفردة... تركيا سيكون لها بعد العام 2002 قيادة جديدة، ذات منحى "عثماني" واضح، وطموح جامع لاستعادة أمجاد إمبراطورية دارسة... الباكستان من موقعها كدولة إسلامية وحيدة مسلحة بأنياب نووية... ماليزيا وإندونيسيا، تنهضان كلاعبين عالميين في مجالات الاقتصاد والتجارة، وهما مرشحتان لدور أكثر تأثيراً... وحدها مصر، ما زالت من أسف، أسيرة سنوات الركود المديدة، التي خلّفت سلسلة من الأزمات المتناسلة، التي لم تخرج منها حتى يومنا هذا.

بقيت منظمة التعاون الإسلامي، أسيرة لشروط نشأتها، تماماً مثلما صار عليه حال "جامعة الدول العربية"، لم تفعل الكثير لنصرة الفلسطينيين سوى البيانات والقرارات والمواقف اللفظية، لم تسجل "نصراً" على هذا الصعيد، ولم تنجح في المقابل، في توسيع نطاقات التعاون والتبادل التجاري والاقتصادي والعلمي والتكنولوجي بين دولها وشعوبها... لم تستجب كفاية لمتطلبات الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، ولم تترجم على نحو صحيح، طموحات مليار ونصف مليار مسلم للحاق بركب التقدم والحدثة والتنمية على قاعدة توسيع وتعميق المصالح المشتركة لبلدانها الأعضاء.

هذا الفشل، معطوفاً على ضيق بعض الدول الأعضاء الرئيسية، بمحاولات "توظيف" المنظمة، من قِبل الدولة المضيفة و"القائدة" في حروبها وصراعاتها الإقليمية، وتحديدًا ضد دول أعضاء أخرى، وليس ضد إسرائيل، "العدو الرئيس" الذي نشأت المنظمة في مواجهته، دفع دولاً عديدة للتعبير عن ضيقها بهذا الإطار، ورغبتها في تغيير وجهته وأولوياته، من خلال تشكيل أطر موازية أو بديلة إن اقتضت الحاجة.

وزاد الطين بِلَّةً مضي آل سعود في محاولاتهم تشكيل ائتلافات ومحاور ذات طبيعة عسكرية، تارة في سياق الحرب على اليمن، وثانية في مواجهة إيران في إطار ما بات يُعرف بمشاريع "التحالف الشرق أوسطي" أو

"الناو العربى" بقباءة أمىركىة... فى هءا السىاق، وءءا علىه، ءأءى قمة كوالمبور الإسلامىة الءى أنهء أعمالها السبء الفاءء.

بقت منطمة الءعاون الإسلامى، أسىرة لشروء نشأءها

اسءشعر آل سعوء طءرا مءءفا بمكانءهم فى قىاءة العالم الإسلامى، فقء سبق قمة كوالمبور، صءور أصواء ءطالب بءفعىل العمل الإسلامى المءشرك، وءنءقء "ءالة الموء السرىرى" الءى ءعىشها منطمة الءعاون الإسلامى، وءلو هءا الءعاون من كل ما ىمكن أن ىفىء نهضة المسلمىن والءءاق ءولهم بركب الءنمىة، وانءشء مءولاء واءءاماء، ءنءقء ءالة "الاسءءباع" الءى ءعىشها المنطمة لأءنءاء ءولة واءءة من ءولها الأعضاء، وصاءء مفاهىم من نوع "السىاءة" و"الءنمىة" و"الءكنولوءىا" و"المصالح" أكثر شىوعا فى طءاب ءءول المنءقءة لفىاءة المملكمة لهءة المنطمة، علنا وصرأءة أو على نحو مضمء رىر مباءر.

وسبق ءلك، أن ءعالت لأول مرمة، ءعواء من قلب العالم الإسلامى، ءطالب بـ"ءءوىل" رعاىة الأماكن المقءسة فى المملكمة، وقء صءرء ءلك ءءعواء ابءءاء من طهران، ولاحقا من ءءوءة، وءائما على ءلفىة الأزماء المءعلقة بءرءبىاء ءىىء مواطنى هءة ءءول إلى مكة والمءىنة، المربءطة أشء الارتبأا، بالءلافاء السىاسىة بىن الرىاض وعواصم هءة ءءول.

والءقىفة أنه لم ىبق من عناصر "المىزة النسبىة" لآل سعوء الءى مكنءهم من قىاءة العالم الإسلامى طوالم ءمسة عقوء، سوى ءضانءها لأهم معلمىن إسلامىىن على الأرض...

فءمة أقطاب إسلامىة ناشئة فى العالم ءءوفر على عناصر الاقءءار المالى والاقتصاءى وءءىموغرافى والءىوسىاسى، ءءء صعوبمة فى قبول الارتهان للروىة السعوءىة لءور هءة المنطمة و"ولائءها" والكىفىة الءى ءُقءاء بها.

ءمة ءءءى ءركى - إىرانى - مالىزى لفىاءة المملكمة، لىسء الباكسءان وإءءونىسىا بعىءءان عنه، وإن كانء للءولءىن ءساباء وأولوىاء ءمنعهما من ءصءر صفوف المعسكر المءمءر على قىاءة آل سعوء.

وفى طنى، أن "السىاساء المءامرمة" الءى انءهءءها المملكمة فى الأعوام الءلاءة أو الأربعة الآءىرة، أفصء إلى "نفور" أقطاب عربىة وإسلامىة واءءاه عءء منها لاعءماء سىاسة "الإبقاء على مسافة من الرىاض"، ونشىر على نحو ءاص إلى المءامرمة الىمنىة للعهء السعوءى الءءىء، وءرىمة اغءبىال الصءفىى جمال ءاشءقى

في قنصلية بلاده في إسطنبول، واحتجاز رئيس الوزراء اللبناني في الرياض وإرغامه على الاستقالة.

وزاد الطين السعودي بـلّة، إن معظم، إن لم نقل جميع، هذه المغامرات منيت بالفشل الذريع، فلم تحقق سياسات المملكة في سنوات الربيع العربي أي من أهدافها العريضة، لا في سوريا والعراق ولا في لبنان أو ليبيا.

آل سعود الذين لم يجد صعوبة في إدامة قيادتهم للعالم الإسلامي، يجدون اليوم صعوبة أكبر في إدامة وتجديد زعامتهم للنظام العربي الذي تكاد "جامعته" تلفظ أنفاسها الأخيرة، وهي من أقدم جميع المنظمات الإقليمية والدولية القائمة حالياً، وتبدي دولا عديدة، ميلا للاحتفاظ بمسافة أمان عن الرياض.

ثمة تحدّي تركي - إيراني - ماليزي لقيادة المملكة

كما أن المملكة فقدت دورها المهيمن في إطار مجموعة دول مجلس التعاون الخليجي بعد فشل سياسة مقاطعة قطر، وميل كل من سلطنة عُمان والكويت، للتغريد خارج السرب السعودي في عدد من ملفات الإقليم وأزماته، وتراكم الدلائل على تفشي النزاع مع الإمارات في عدد من الملفات، من بينها الملف اليمني ذاته.

لقد قرأت بعض الدو/لأقطاب في العالم الإسلامي، وصول "اللحظة الخليجية في العالمين العربي والإسلامي" بداية نهايتها، فأخذت تعد العدة، لإضعاف دور آل سعود المهيمن على منظمة التعاون الإسلامي، ولكل دولة/ قطب منها أسبابه وأهدافه المختلفة، بيد أن ما يجمع بينها هو رغبتها المشتركة في الخروج من فلك آل سعود واستعادة زمام المبادرة بما يخدم أدوارها ومصالحها، ويتجاوب مع التبدلات في توازنات القوى داخل العالم الإسلامي.

وإذا ما كُتِب لهذه المحاولات النجاح، فإن "العرب" سيفقدون قيادة العالم الإسلامي، حتى بوجود أهم مراكزه الروحية والدينية على أرضهم، تماما مثلما انتقلت مراكز الكنيسة المسيحية إلى الخارج، مع أن فلسطين وجوارها، هي موطن المسيحية الأول، وهي حاضنة أهم الكنائس والأديرة التاريخية وأكثرها ارتباطها بالمسيحية الأولى.